# أدب الرحلة-التفاعل النصي واستراتيجية التمركز

# Trip literature –Text interaction and centralize strategy

أ.د فتيحة العزوني*

د. سترة موسى♣

| تاريخ الإرسال: 2022/12/28 | تاريخ القبول: 2023/10/08 | تاريخ النشر: 2024/06/30 |
|---|---|---|

**الملخص:**

ينجذب بنا الاشتغال في هذا المقال صوب خصوصية الرحلة بنائيا ونظريا، بعيدا عن المضامين والمحتويات. ثم ينعطف بنا نحو أنساق النص الرحلي وهي تتقلب عبر سيرورات النسق المتحول بعيدا عن فرادة الصوت والرسوخ لجاهزية التشكل سلفا. إنها الشكل الجامع لأجناس حكائية متعددة الأجناس والأنماط بعدبلورة هويتها وإعادة تنظيم خصوصيتها، وهي الفضاء الأمثل لتحقق التمركز في إطار مرجعي اجتماعي وثقافي لتصير مكونات صنفية ذات كنه جمالي. وعليه يتوخى مقصدنا الجمالي من هذا البحث الوقوف عند مبررات تشكل الأنساق وعلل تنضيدها ومنطق تحولها ضمن نسيج النص الرحلي المكتوب.

**الكلمات المفتاحية:** أدب، رحلة، سرد، تجنيس، تفاعل نصي.

**Abstract:**

*Our mainconcernis the focus of our interest in this article to wardstheprivacyofthetripconstructivelyandtheoretically, awayfromthecontents. The nustowardsthetriptextformats ,anditfluctuatesthroughtheshiftingsystemprocessesawayfromtheuniquenessof soundreadyto form in advance. It is the collective form of multigenre narrative racesandpatterns after crystallizing her identity and reorganize the*

* جامعة أحمد بن بلّة-وهران 1lazounif@gmail.com

♣جامعة أحمد بن بلّة-وهران1moussasotra@gmail.com

*irprivacy, it is the optimal space for centralization with in a social and culturalframeofreferencetobecomeclasscomponentswithaestheticcontent. And itenvisagesouraes the ticintentofthisre searchstanding at the justifications for the formation of formats and ther easonsfortheirtypesettingandthelogicofitstransformationwithinthefabricof the written text.*

***Key words**: literary, trip, narrative, naturalization , text interaction..*

*** *** ***

**المؤلف المرسل:** فتيحة العزوني lazounif@gmail.com

**1.مقدمة:**

الرحلة مجال لاشتغال الأنساق وفضاء خصب للتشكلات السردية، وهي حركة في الزمان والمكان، اتصلت بتاريخ الإنسان منذ أقدم العصور، نشطت بدءا على أيدي المستكشفين القدامى من الفراعنة والفينقيين والرومان والإغريق[1]. حيث أدّت دورا هاما في الكشف الجغرافي، ووطدت التواصل بين الشّعوب، التي انفتحت على بعضها البعض، خاصّة فيما يتعلّق باللّغة والتّقاليد والعادات، لأنها الجسر الذي يصل الأنا بالآخر.

ولقد خاض العرب مغامرة الرحلة منذ القدم، وكانت عنايتهم بها عظيمة في سائر العصور. حيث ارتادوا الآفاق بغرض استكشاف العوالم المحيطة بهم، ولم ينعزلوا ولم يتقوقعوا، وقد وثق القرآن الكريم عددا من رحلات الأقوام والأنبياء.

واتّسع عبر الفتوحات الإسلامية وما تلاها من عصور الازدهار المعرفي والحضاري مجال الرّحلة التي عُدّت لدى المسلمين الفاتحين من أهم الوسائل لنشر رسالة الإسلام من موقع جغرافي إلى آخر. حتّى تسنى لهم إيصال الرّسالة المحمدية إلى معظم بقاع العالم.

وتعدّ الرحلة الحجية باعثا للمسلمين على الارتحال من كلّ فجّ عميق قاصدين البيت الحرام، لتأدية الرّكن الخامس من أركان الإسلام. والجدير بالذّكر هو أنّ هذا النّوع الرحلي حظي بالقسط الأوفر من الكتابات، خاصّة لدى المغاربة. ومن الدوافع الّتي أدّت

إلى ازدهار هذا الفن الكتابي عندهم نذكر امتدادات الفضاء المكاني بين شبه الجزيرة العربية وبلاد المغرب.

ومن مقاصد الرحلة اهتمام المسلمين بطلب العلم أينما كانوا، قصد تحصيل قسط وافر من العلوم بلقائهم الشّيوخ ومجالستهم العلماء. إن طلبة العلم قديما كانوا يرتحلون إلى العلماء للتحقق من نسبة المدوّنات إلى مؤلّفيها، وصحّتها إمّا عن طريق السّماع المباشر، أو بمجالسة الشّيوخ الكبار الموثوق فيهم، وحضور مناقشاتهم ومحاوراتهم العلميّة، واستعراض قدراتهم الفكرية والّذهنية، وإبداعاتهم الفنّية. هذا النّوع من الرّحلات سواء الدينية أو العلمية كانت توفّر فرصا ثمينة لتداخل الثّقافات المغربية والمشرقية واكتشاف الواحد للآخر، وتواصل العلماء بعضهم ببعض.

بعد هذا العرض الاستكشافي المقتضب عن تاريخية الرحلة عربيا، حري بالدراسة في هذا المقام إثارة جملة من الاستفهامات بخصوص صيغ وأشكال اشتغال هذا النمط من الكتابة السردية المتأسسة على الوصف والإخبار والحكي في حضور ذات واقعية / سردية التي عنها تصدر الأنساق التلفظية في النص الرحلي..كما يجدر بنا أن نفعّل عددا من الإشكالات بخصوص أدبية الرحلة، مع عرض ومناقشة مجمل التصورات النقدية التي تسعى نحو تجنيس هذا الشكل الكتابي. ومقصديتنا من وراء ذلك الانفلات من أحادية الرؤية والفرار صوب طبيعة التفاعلات النصية المشكلة للمكتوب الرحلي ووصور تمركزها في متنه.

**2. أثنوغرافية النص الرحلي:**

إن المتتبع لمسار الرحلة العربية القديمة يلاحظ أن القرن السادس الهجري شهد نهوض الكتابة الرحلية، وسرعان ما تبلور هذا الشكل الكتابي حوالي القرن التاسع الهجري، حيث أضحت الكتابة فيه توثيقا للخبر التاريخي، إضافة إلى تطور تقنية وصف الفضاءات الجغرافية والعمران والعادات والنظم الاجتماعية للشعوب. ويعتبر أبو عبد الله محمد الادريسي العالم الجغرافي (493هـ-595هـ) وأبو الحسن المسعودي (283هـ 346 هـ)، وعبد السلام بن جبير (ولد 540هـ)، ومحمد بن عبد الله بن بطوطة (703هـ- 779هـ)

من أشهر الرحالة العرب الذين ارتادوا الآفاق ووثقوا دهشة اكتشاف الآخر في متونهم الرحلية.

إنتاجات هؤلاء الرحالة وغيرهم تكشف لنا تماهي الحدود بين العلوم المختلفة نظرا للحمولة العلمية والأدبية والأثنوغرافية*Ethnographiqueللنص الرحلي. فضلا عن الثقافة الواسعة التي ميزت هؤلاء الرحالة وغواية الخيال لديهم وتمكنهم من آليات الحكي وسحره. إذلم يكن الرحالة ناقلا للواقع بشكل آلي أو ساردا ساذجا للأخبار، إنما كان منتجا للمواقف والرؤى والأحكام والانطباعات. وللرّحلة منطلقات نفسيّة تتعلّق بصاحبها، لأنّ كاتب الرّحلة يتعرّض لمؤثرات خارجية إثر تعامله مع المحيط الخارجي الجديد، فيصور مايتلقاه بدهشة واستغراب من الأحداث الّتي يصادفها أثناء قيامه بالرّحلة، خاصّة فيما يتعلّق بالمعالم الأثريّة والعادات المتوارثة في منطقة ما، و الّتي كثيرا ما كانت تبدو له غير عاديّة، لأنّه لم يألفها.

أما التّأثير الدّاخلي فيتمثّل في استجابة الرّحالة لنوازعه الّتي تحفّزه على تدوين رحلته، مؤدّيا دور السارد. ويكمن الاختلاف بين الرّحّالة في كون بعضهم يدوّن رحلته أثناء مسيرته، أو يدونها بعد عودته إلى وطنه وبعضهم يمليها على غيره. ويكون هذا أحيانا بأمر من الحاكم الّذي يحتاج الرّحلة لأغراض سياسية. ومع اختلاف دوافع التّدوين إلّا أنّنا في المدوّنات الرّحليّة، نجد المؤلّف يبدي رأيه وانطباعه حول قضايا معيّنة مبرزا في ذلك شخصيّته ورأيه. فالرحالة لا يقدم ملاحظاته بحياد وموضوعية، ففي ملاحظاته ووصفه الكثير من الذاتية وإلا كانت الرحلة مجرد دليل سياحي.

لقد أسهمت الكتابة الرحلية العربية القديمة في تشكيل الوعي بالذات وبالآخر. كما اتسمت بكم معرفي وعجائبي قُدِم في لبوس سردي حكائي. وجمعت ركاما زاخرا من المعارف التاريخية والعلمية والثقافية والدينية والأدبية، وساعدت في إضاءة الكثير من المساحات المظلمة في سجلات التاريخ السياسي والثقافي لكثير من المجتمعات القديمة. كما صورت بعض ملامح حضارة العصر الّذي عاش فيه الرحالة، والكثير من عناصر ثقافة البلدان الّتي قصدوها، وأحوال الشّعوب الّتي اختلطوا بها. وفسحت المجال للمقارنة بين الثقافات وساعدت في تقييم نظم وتقاليد الشعوب. "وفي جميع الأحوال، يظل أدب الرحلات معبرا عن التنوع الثقافي بين البشر الذي يشمل العادات والتقاليد في

الطعام والشراب والتفكير والمعتقدات، والنظم الاجتماعية، وهذا واقع ضمن الدراسات الإثنوغرافية، التي تساعد على فهم مسار الحضارة الإنسانية، إذ إن التنوع الثقافي يساهم بلا جدال في التغيير والتطور الإنساني في مجمله".[2]

ويقوم كاتب الرّحلة بسرد الأحداث بتتابع واسترسال، واصفا المعالم الحضاريّة والتّاريخيّة والشّخصيّات المهمّة الّتي لقيها، ويصوّرها وفقا للواقع ويتّخذ الحقيقة أساسا له في تصوير الأماكن والاكتشافات ونقل عادات وتقاليد المجتمعات. "ومن الرّحالة من ينقل المشاهد بنوع من الرّغبة في التّأثير الوجداني، ويجعل الرّحلة سمة أدبيّة بدلا من أن يقف عند حد التّسجيل أو التّدوين والجمود"[3]، فيلجأ أحيانا إلى إضافة العوالم العجائبية لجذب المتلقي إلى خطابه.

**3. المسألة النقدية حول النص الرحلي:**

إن الرحلة بوصفها نصا، أضحت توظف البعد التعبيري الذي سمح بإعادة إنتاجها كتابيا، فتحولت إلى مادة تجمع في صلبها أشكالا تعبيرية كثيفة أدبية وغير أدبية، تحكي أحداثا وقعت في فضاءات متعددة، متجاوزة جنسها لتخترق حدود نوعها إلى مدارات خارج سيطرة المعيار الأدبي، ومثلما الرحلة ترحال في المكان، هي أيضا ترحال بين الأنساق والأجناس. لهذه الخصائص هي عصية على التحديد، خارجة عن أي اتفاق حول مفهومها. يخول ذلك لنا القول إن النص الرحلي نص إشكالي يسبح في فضاء ملتبس على المستوى الإجناسي بنيته مشدودة إلى مرجعيات مختلفة. فهو ملتقى عدد من الأجناس. تتأرجح بين الهامشي والمركزي. مما يتيح لنا البحث في طبيعة الرحلة وتحليل مكونات خطابها الأدبي، قصد الوقوف على الطبيعة الأولى لأصولها، وتحديد أبرز تشكيلاتها النصية.

توقَّف الاشتغال النقدي للباحثين في بداية الأمر عند استعراض الحمولة العلمية والأدبية والإثنوغرافية للنص الرحلي. فهذا "أغناطيوس كراتشكوفسكي المستشرق الروسي يصنف في كتابه الموسوم بـ" تاريخ الأدب الجغرافي العربي"[4].الذي بحث فيه عن جذور الرحلات العربية - الرحلة ضمن الأدب الجغرافي. أما شوقي ضيف فقد وطد الأواصر بين الرحلة والقصة. معتبرا أنّ "أدب الرّحلة يرفع التّهمة الّتي ترى أنّ الأدب

العربي لم يعالج فنّ القصّة"[5]، ويرجع الأمر إلى أنّ الحديث عن حضارات الشّعوب الأخرى، وعاداتهم وتقاليدهم، يدخل في إطار القص، وإن لم يقصد الرحالة ذلك. ويتوافق هذا الرّأي مع رأي "كراتشكوفسكي" بأنّ ما أسماه بالأدب الجغرافي "يقدّم متعة ذهنيّة كبرى، إذ نلتقي فيه بنماذج أدبيّة فنيّة رائعة، صيغت بالسّجع أحيانا. والمصنّفات الموضوعة من أجل جمهرة القرّاء يتراوح فيها العرض بين الجفاف و الصّرامة من جهة والامتاع والحيويّة من جهة أخرى، وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص"[6] . وينظر محمد فهيم في مصنفه: "أدب الرحلات "إلى المسألة من زاوية أخرى بربطه ما بين الرحلة والأثنوغرافيا التي تعنى بدراسة المظاهر المادية والاجتماعية للشعوب في مختلف الأمكنة والأزمنة. وهناك من الدارسين من نظر إلى الرحلة من منظور تاريخي على نحو ما ذهب إليه محمد المنوني في كتابه: "المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث". إذن تنوّع موضوعات الرحلة "جعلها قبلة لمنح المعلومات الجغرافية والتاريخية والشعرية والصوفية والأثنوغرافية ..." [7].

وتتعاطى الدراسات المعاصرة مع المادة الأدبية نفسها، لكن برؤية نقدية مغايرة مستثمرة آليات المناهج المعاصرة، ولاسيما بخصوص مسألة تجنيس النص الرحلي، حيث توخى الدارسون بلوغ ما لم تبلغه الدراسات السابقة، فلم تعد المعالجة النقدية لهذا الاشكال ترضى أن تكون الرحلة مجرد خطاب جامع مانع لكل المعارف والعلوم و الأنساق. نمثل لذلك بالمقاربة السردية التي قدمها كل من عبد الرحيم مؤدن[8] وشعيب حليفي [9] وعبد النبي ذاكر[10]. وبإجماع هؤلاء الباحثين يعدّ النص الرحلي نصا هجينا يتنافى ونقاء النصوص، بمفهوم باختين، بحكم دخوله في حوار دائم مع مختلف الأنساق، عبر مراحل تاريخية مختلفة.

يعترف عبد الرحيم مؤدن أن الرحلة "كتابة ملتبسة سواء على مستوى الهوية الأجناسية، أو على مستوى محاورتها -في سياق نظرية الأدب-لأجناس أدبية وغير أدبية"[11]. ففكرة الكتابة الأدبية متنوعة، يسودها الاختلاف في الأساس، من ذلك استدعاء النص الرحلي للسرد والسير والتراجم والتاريخ. والتهجين فيه ينسحب على التيمات والأساليب والمحكيات والمصادر المختلفة والمعارف المتعددة، فهو نص تتقاطع في نسيجه نصوص عديدة تنتمي إلى المتن الجامع الذي تندرج تحته الرحلة وهو: أدب الرحلة. كما يتوازى

مع الخطاب الأدبي عامة و السردي خاصة بتوظيفه لمخزون خبري و محكي وسيري وشعري .. مثلما قد يتداخل مع الخطابات غير الأدبية: مثل التاريخ والجغرافية ومعاجم البلدان.

وإن قدرة الرحلة على صنع أدبيتها يتوقف على إمكاناتها في صهر خطاباتها المتنوعة، بما تحمله من أنساق في خضم تجربة المغامرة التي يخوضها المرتحل في عالم مختلف الأبعاد.

عطفا على ما سبق تشكل الرحلة طبقاتها من النصوص والأساليب والمعارف والمواقف. وهي في كل ذلك تستوحي الأداة الملائمة، موظفة اللغة الوظيفية السائدة بتقريريتها المعهودة واللغة الأدبية المتوافقة مع الذائقة والوجدان، مستثمرة فن الخبر والحكاية، والشعر والنثر، والمألوف والعجائبي...

هكذا يتحول النص الرحلي إلى نص ثقافي، متعدد الأنظمة المنتجة للأشكال الأدبية. ويظل هذا النص محافظا على حيويته الدائمة، بحكم بنيته المرنة التي تسمح بتطويع تفاعلاته النصية مع مختلف الخطابات والنصوص سواء كان أدبية أو غير أدبية، بعاملي التأثير والتأثر بعناصر جديدة، ومتجددة. بل إن النص الرحلي هو أصل كل الأجناس النثرية، وهو منبع الانتشار النصي الذي أنتج نصوصا عديدة عرفت استقلالها الأجناسي فيما بعد.[12]

إن بلوغ درجة الأدبية لا يتم إلا عبر تراكم نصي، في الزمان والمكان، مما يسمح لنا بالحديث عن الجنس عوض الحديث عن النص. فالرحلة جنس أدبي قائم بذاته استنادا إلى تراكم كمي وكيفي، ميّزه عن غيره من النصوص دون أن يعني ذلك قطيعة مطلقة بين مختلف الخطابات السائدة في مرحلة محددة.

تحقق الرحلة أدبيتها باقترابها من الأدب وبالابتعاد عنه في آن واحد. والمتأمل في المركب الإسمي: "أدب الرحلة" يقف على العلاقة بين الرحلة و"المعيارية" الأدبية السائدة. يدل هذا المركب على جوهر هذه العلاقة المعيارية. إن اقتران الأدب بالرحلة في المركب الإسمي السابق لا نجد له مثيلا مع باقي الأجناس الدالة على ذاتها. حيث لا يستساغ

القول على سبيل المثال في: أدب الشعر أو أدب الرواية، قياسا على أدب الرحلة. من جانب آخر وعلى الرغم من وجود مكون الرحلة في العديد من الأجناس الأدبية، لكنها لا تعدو أن تكون ثانوية أمام هيمنة الجنس على المركز. نمثل لذلك بالرحلة في الشعر، فالقصيدة العربية القديمة لا تخلو من الحل والارتحال حلما وواقعا، غير أن هذا السفر ثانوي أمام مركزية بنية الشعر. أي أن السفر في هذه النصوص الشعرية يكون بنية ثانوية بالقياس إلى بنية مركزية تتعلق بانتماء النص لجنس بعينه. وعلى هذا الأساس يصبح النص قصيدة دون أن يكون رحلة.[13]

في ضوء هذا الطرح تسعى الدراسات المعاصرة المتبنية للرحلة إلى معالجتها معالجة نقدية، معتبرة إياها شكلا أدبيا مستقلا عن باقي الأشكال الأدبية الأخرى. حيث تجدد الطرح النقدي وأصبحنا نقرأ في العديد من البحوث العلمية عن أدبية الرحلة باعتبارها جنسا أدبيا، له كيانه الفني، وله عالمه النصي الذي يفترض الاعتراف به. فربط الرحلة بالمعيارية الأدبية السائدة يوحي للمتلقي وكأن نص الرحلة لا يستطيع أن يمتلك هوية أدبية إلا بهذه المعيارية، بدليل أن هذا الإسناد لا نجده مع باقي الأجناس الأدبية كما مثلنا لذلك سلفا، فلا يقال أدب الشعر أو أدب القصة. ولهذا وجب الاشتغال على الرحلة من حيث كونها جنسا أدبيا قائما بذاته، استنادا إلى جملة التراكمات الكمية والكيفية التي يستميز بها عن غيره من النصوص الأخرى.

**4. مركزية السفر في النص الرحلي:**

تقابل الدارسين في حقل الأجناس الأدبية بوصفها ضرورات فنية مسألة في غاية الأهمية تتمثل في معرفة الكيفية التي تتشكل وفقها الأنواع الأدبية، ومعرفة الحدود الفاصلة بين نوع وآخر. فالجنس الأدبي اصطلاح مهمته تصنيفية في الأساس تحيل على جملة الأنواع، والأنماط الفنية التي تتمتع بها الأشكال الكتابية خلال التاريخ. والفصل بين الأجناس لا يكرس العزلة والمفارقة، وإنما هو فصل جمالي يسمح بالتداخل تارة، والاختلاف تارة أخرى.

إذا كان الجنس بنية قائمة على الثبات. فالثابت في النص الرحلي هيمنة بنية السفر المنظمة لمسار الرحلة المادي من جهة، ولمسار الكتابة من جهة أخرى. فلا رحلة

دون سفر ولا سفر دون رحلة. إن السفر باعتباره تجربة معيشة على مستوى الواقع، ينتقل بفضله المتلقي إلى عوالم الرحلة وفضاءاتها. ويندرج تحت بنية السفر التخطيط والتشكيل انطلاقا من جغرافية المكان التي يرسمها لنا الرحالة ذهابا وإيابا، مرورا برسومات الفضاءات.[14]

تسوّغ لنا بنية السفر إذن التصنيف، وهي في الوقت ذاته، تمكننا من تلمس خصائص الكتابة الرحلية. إذن السفر معيار تصنيفي، يتيح تدعيم خصيصة الأدبية في الرحلة. وينبغي أن يكون السفر في الرحلة قصديا ليس هجرة ولا نفيا ولا ترحيلا. والسفر القصدي هو الذي يجعل من المتن الرحلي حاملا لخصائصه النوعية، إذ السفر في النص الرحلي عنصر يعمل على تغذية الرحلة، وعنه تفيض الأحداث وتنطلق. ثم يتنحى تاركا المشهد لأحداث أخرى خلال محطات الحل والترحال. وكلما خفتت تلك الأحداث، وتراجعت بعد تأديتها لوظيفتها، يتم اللجوء مرة ثانية إلى مكون السفر لفتح آفاق أخرى على تيمات جديدة، وهكذا يكون السفر حافزا وباعثا لخلق العوالم وتناسلها على مستوى الرحلة. [15]

لقد صاغ عبد الرحيم مؤدن في كتابه: "أدبية الرحلة "[16] خطاطة للبرنامج السردي للرحلة نوجزه فيما يلي:

-الانطلاق: ويتعلق بالاستعداد للسفر وما يدخل تحت بابه .

-طريق الذهاب: تحديد المحطات والأماكن والمزارات التي ترتادها الرحلة مع سرد للمشاهدات والأحداث ضمن الفضاء الزمني والمكاني، وما تثيره من استطرادات في شتى المواضيع.

-الوصول: تحديد زمنه ومكانه وسرد مشاهداته ومغامرات الرحلة في الفضاء المرتحل إليه .

-الانطلاق: الاستعداد للمغادرة ووداع الأحبة وذكر وسيلة العودة وتحديد زمن ومكان الانطلاق.

-العودة: وهو مسار الذهاب في اتجاهه العكسي.

-الوصول: تحديد مكان وزمن الوصول وملاقاة الأحبة وما يترتب عن ذلك من مجريات...

ويحقق البرنامج السردي دائريته بوصول السارد/الرحالة للنقطة التي انطلق منها في رحلته. وتعد هذه الخطاطة نموذجا منطقيا ثابتا في أدب الرحلة، به تحقق الكتابة الرحلية خصوصيتها.

يتيح أدب الرّحلة للكاتب حريّة التنقّل بين الأجناس الأدبيّة المختلفة من النّثر إلى الشّعر، وبين المعارف الإنسانيّة المتنوّعة من التّاريخ إلى الجغرافيا، إلى الاقتصاد، إلى السّياسة، إلى الدّين...، ومن الوصف إلى السّرد، إلى الحوار، لذلك يعتبر ضمّ الرحلة " لحقل معيّن وجنس مخصوص إهمال لطبيعة وخصوصية هذا النّوع من الكتابة الّذي يزخر بالمضامين والموضوعات العديدة علمية وأدبية وفنية، ممّا حدا ببعض الباحثين إلى التّعامل مع الرّحلة على أنّها خطاب مخصوص له منطقه الذّاتي، وبناؤه ومكوّناته وعناصره"[17]، لذلك يصعب تجنيس الرّحلة. فهي شكل تعبيري شامل يهدم أسس وقواعد نقاء النّوع، وذلك بضمّه أنواعا خطابية مختلفة من حيث الأشكال والمضامين، الأمر الّذي يعطي الانطباع بأنّه شكل مائع ومرن إلى حد كبير، إضافة إلى شدّة تعقّده وتوظيفه لأنماط وأساليب ومضامين كتابية تبعده عن البساطة الظاهرة، لتجعل منه جنسا مركّبا وشموليّا وعامّا، وجنس الأجناس"[18]. ومن هنا فإننا نرمي بثقل بحثنا حول ماهية الخصائص والسمات التي تحقق أدبية خطاب الرحلة، ذلك ما نتوخى معالجته في العنصر التالي.

**5. مدارات السارد في النص الرحلي:**

الرحلة صيغة لغوية لها سماتها الأسلوبية التي تميزها عن غيرها من الأشكال التعبيرية، وهي تمرر خطابها الرحلي عبر عدد من الوسائط منها السرد والوصف والإخبار. كما تضع متلقيها أمام تشكيلات خطابية متعددة في البناء. ولذلك هي "خطاب مهجن تتفاعل فيه الأنظمة اللغوية والأسلوبية والصوتية بحوارية النصوص والخطاب"[19]. وإن بنية السفر التي تمثل الثابت في أدب الرحلة تجعل سرد الرحلة لا

يجمع أجزاء الخطاب في وحدة حكائية واحدة، بل تغزوه تلك الاستطرادات غير السردية من تأملات وتعليقات ومداخلات في شتى المجالات.

إن تجنيس الرحلة أدبيا يقتضي وجود السمات الأساسية للرحلة. فليس كلما كتب من رحلات يمكن إدراجه ضمن الأدب، فالعديد من الرحلات كتبت في شكل تقارير صارمة خالية من رؤية كاتبها وموقفه وروح السرد؛ مثل هذا النوع من الرحلات لا يندرج ضمن دائرة الأدب. إن أدب الرحلة شكل أدبي له من الخصوصيات ما يجعله يتميز عن الأشكال الأدبية الأخرى، فهو يستضيف عددا من الصيغ والأشكال والخطابات، وهو تمثيل سردي لأحداث واقعية تروى بضمير المتكلم في ترتيب زمني مما يحقق التراتبية، الأمر الذي يستوجب تمظهر السارد، ويفترض تتابع أحداث وبروز شخصيات وأزمنة وفضاءات وأمكنة تمثل منبع الحكي.

خطاب الرحلة شكل تعبيري خاص، قد يتداخل مع عدد من الأشكال التعبيرية مثل: السيرة الذاتية، أدب المذكرات.. إلا أن الفرق بينها وبين تلك الأشكال أن خطاب الرحلة حكاية لتجربة قصدية لها مقاصد محددة وتخطيط مبرمج، بينما السيرة الذاتية والمذكرات لا يرتبطان بقصدية مسبقة لما يتم تدوينه. وذلك عينه ما يميز الكتابة الرحلية.

السارد/ الرحالة هو الأداة التي تنظم الخطاب السردي، وهو يؤدي دورا مهما في خلق أدبية الرحلة. إن "من أهم خصائص السرد الرحلي استناده إلى سارد محوري يتوزع بين الكتابة والتأليف والسرد ولعب دور البطولة"[20]، من خلال مجموعة من التقنيات التي تعد خصائص مميزة في الكتابة الأدبية الرحلية. وتتمثل هذه التقنيات بدءا، فيما يقوم به السارد من تحويل للحدث الواقعي إلى خطاب سردي موظفا أساليب مخصوصة. ممسكا بخيوط السرد من بداية الرحلة إلى نهايتها. وهو من ينسج تلك التتابعية التي تعوض الحبكة التي تقرن الأحداث بعضها ببعض في مسار السرد الرحلي.

ولا يستقل السارد "عن المؤلف فهو-هنا-علامة نصية وعلامة مرجعية ومستويات التداخل بين السارد والرحالة قائمة على التطابق التام. إننا أمام ذات تلفظية تاريخية حقيقية تقدم الأحداث كسارد وشاهد من خلال ذاكرة أيقونية مرتبطة بالبصر

والبصيرة" [21]. ففي خطاب الرحلة قد تُسرد أحداث لا رابط سببيّ بينها، غير مركزية السارد/ الرحالة؛ هو إذن الأداة الممسكة بخيوط السرد، والمبتكرة للإطار الكلي الذي يجمع شتات الأمكنة والأحداث من أجل سردية متناسقة الأبعاد.

تعدّ مقدرة السارد في خلق مسار سردي لرحلته ومكنته في تنويع السرد، من أهم مقومات أدبية الرحلة. إن السارد "يغدو في هذه الحالة صانعا لقصة أو لفصل من فصولها لا مجرد سلك واصل بين الأحداث ومتلقيها، وبهذا نصل إلى نتيجة مهمة هي أن حضور الراوي في الرحلة لا يعزز صبغتها التاريخية بقدر ما يؤكد مسحتها الأدبية الإبداعية". [22]

ينبغي التنبيه إلى أن السارد " في النص الرحلي لا ينتج جملا منعزلة، بل نصا يتأسس على جمل متسلسلة تعمد إلى تجسيد الفعل الإنجازي الكلامي، القصد الحجاجي، المنظور الإخباري ...أي خطاب تلفظي مرجعي قائم على قاعدة استدلال مفسرة تنفتح على دوائر دلالية متعددة."[23]

والرحلة بوصفها حكاية وخطاب، فإن بدايتها تكون من نقطة الانطلاق التي حددها خطاب الرحلة بواسطة السارد /الرحالة، أي أن منطلق الرحلة يكون لدى بروز صوت السارد الذي تُسْرد بصوته الحكاية، معلنا بداية حركة السرد في تنظيم سردي يتقدم إلى الأمام حتى نهاية خطاب الرحلة، إما مع حركة الزمن الواقعي للرحلة، أو من خلال تنظيمات سردية للرحلة، استنادا إلى منطق الحدث الداخلي، وهذا ما يطلق عليه التتابعية التي تميز النصوص الأدبية السردية.

من خصائص الرحلة أيضا أن السارد/الرحالة يكشف لنا في عتبة رحلته، عن أسباب قيام الرحلة وطاقمها وبرنامجها والهدف منها. وتكتب هذه العتبة الرحلية بصيغة خبرية. وهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بخطاب الرحلة السردي؛ إذ لا يمكن فصلها عن بنية سرد الرحلة؛ لصعوبة تفسير بعض الأحداث وما يجري من تفاصيل سردية بعيدًا عن هذا الخطاب الاستهلالي. ثم إن مسألة تدوين الرحلة يكون – غالبا- أثناء أو بعد نهاية الرحلة مباشرة؛ على خلاف المذكرات والسيرة الذاتية التي تتمحور حول استدعاء الذاكرة من قبل المؤلف.

إن السارد في أدب الرحلة شخص له حضور على المستوى الواقعي يروي الحكاية بضمير الأنا - في معظم الرحلات – أو النحن في بعضها. يقترن ضمير المتكلم بالذات بشكل حميمي، فالمحكي يقترب من السرد الذاتي. فمن أهم مظاهر الكتابة الرحلية استنادها إلى ضمير المتكلم مفردا أو جمعا، فضلا على سيادة الجانب التوثيقي "الذي يحرص الرحالة فيه على تسجيل كل خطوة يخطوها بدقة زمنية ملموسة وبشهادة حية على اللحظة التاريخية ذهابا إيابا." [24]

حضور السارد/ الرحالة في رحلته حضور فعلي فهو الذي يضبط وحدات التلفظ ويوظف أشكالا متعددة من صيغ الخطاب "ويحدد إجراءات التنظيم النصي المؤسسة على التسلسل والتضمين والإدماج والتدرج الحكائي. وهو الذي يراكم الصفات والموصوفات ويستخدم عناصر المفارقة بين مرجعيته ومرجعية الآخر [25]. وهو يقدم ذاته للمتلقي " في بداية الرحلة ولايتركها من البداية إلى النهاية. وحتى حين يغيب يحضر صوته وملفوظه"[26]. وقد يكون سارد خطاب الرحلة هو الرحالة نفسه، كما قد يرويها شخص آخر مثلما حدث في رحلة ابن بطوطة التي رواها " محمد بن أحمد بن جزي الكلبي" إملاءً عن ابنِ بطُّوطة، وبأمر من السلطانُ "أبو عنان فارس المريني" عامَ 756هـ. وفي الغالب الأعم فإن الكاتب نفسه هو من يروي رحلته.

تتحرك الرحلة بوصفها تجربة ذاتية يلقيها السارد، ضمن مسارات جغرافية وطوبوغرافية وضمن وعاء حامل لمختلف الشحنات الدلالية التي تتكتم على العديد من الأنساق المعرفية والثقافية والحضارية. وتعد اللغة المعبر الوحيد لرسم المكان داخل النص الرحلي، فهي التي تحوله إلى فضاء مرئي وفق استراتيجية سردية. موطدة خطابها التواصلي بين السارد الذي يروي مشاهداته العينية ومشاهده الوصفية الإخبارية مبتكرا أسلوبا خاصا في البنية والصياغة، وبين المتلقي الافتراضي الذي يرغب في اكتشاف مجاهيل الرحلة والاستزادة من المعرفة. لذلك يقترح السارد في خطابه سياقا تواصليا يرتكز على تحديد الأماكن والأزمنة بدقة متناهية كمؤشر على مصداقية الأحداث.

إن الارتباط الوثيق بين السرد والوصف يستلزم تبعية كل منهما للآخر. والوصف يعدّ أحد مقومات أدب الرحلة، حيث يطغى بقوة على أساليب الكتابة الرحلية. فخطاب

الرحلة في الأساس قائم على وصف الأماكن والشخصيات والأحداث في إطار تفاعلي لكشف أبعادها الفنية، مما يكسب الرحلة بعدها الجمالي. ويتجلى ذلك في طريقة إيصال المرئي من خلال التشخيص ورسم الصورة المصاغة عن الحقيقة التي تتماهى فيها الذات والصورة. فالرؤية البصرية تظل العنصر الحاسم في عملية الوصف الذي لا ينفصل على البناء الكلي للرحلة.

في ضوء هذه الأطروحات النقدية يُعلَن ميلاد النص الرحلي نظريا بوصفه نصا يتميز عن غيره من النصوص الأدبية مثلما يتقاطع معها في مساحات معلومة. ومعرفة الخصوصية الفنية والبنائية لهذا لنوع الأدبي على النحو الذي بسطنا القول فيه عبر ما طرحناه من إشكالات وافتراضات تعبئ متلقيها بالكثير من الوعي الثقافي لخوض مغامرة قراءة النص الرحلي وتأويله.

**6. خاتمة:**

- الرّحلة فعل إنسانيّ الغرض منها الانتقال من مكان إلى آخر، لكن سرعان ما تطوّرت لتصبح فنّا من الفنون الأدبيّة قائما بذاته.

- النص الرّحلي يعكس ويوثّق ما شاهده الرّحالة من أحداث، ووصف للمواقف والأماكن والشعوب الّتي صادفته في رحلته.

-نصّ الرّحلة يختلف عن غيره من النّصوص الأدبيّة، كونه يضمّ العديد من الأنواع الأدبية منها: السّيرة، والقصّة، والشّعر... ويمكن الافادة منه في مختلف المجالات منها التّاريخية، والسّياسية، والاجتماعية، والاقتصادية وغيره.

- أصبح مفهوم أدب الرّحلة يندرج ضمن تسمية تروم تجنيس هذه الكتابة ضمن المنظومة الأدبيّة، فللرحلة من الخصائص ما يجعلها تتقاطع مع عدد من الأشكال الأدبية وهي في الآن نفسه تنماز بخصوصية تضمن لها التفرد بشكلها الأدبي، بها تتغذّى مجموعة من العلوم والمعارف. وتنسج لغويا وفق آليات تمنح السّرد خصوصيّته.

-للنصّ الرّحلي خصائص تميّزه عن النّصوص الأدبيّة الأخرى، ومن أبرز خصائصه: السّارد/الرحّالة، وهو عنصر أساسي ومهيمن في العمليّة السّرديّة.

**7.الهوامش:**

[1] ينظر: شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن القصصي، دار المعارف، القاهرة/ مصر، ط4، (د.ت)، ص6.

* الأثنوغرافيا: تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة (عن حسني محمد حسني، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص 86).

[2] حسين فهيم، أدب الرحلات: دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص52.

[3] سيد أحمد النساج، مشوار كتب الرّحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة، (د.ط)، 1992، ص7.

[4] ينظر: أغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، ط.2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987، ص20.

[5] شوقي ضيف، فنون النّثر الأدبي العربي-الفن القصصي، دار المعارف، مصر، (د.ط)، 1956، ص6.

[6] كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدّين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1987، ص28.

[7] عبد النبي ذاكر، عتبات الكتابة /مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي (د.ط)، منشورات مجموعة الأكاديمي في الأدب الشخصي، المغرب 1998، ص14.

[8] ويبقى أهم مجهود علمي في هذا الإطار ذاك الذي اضطلع به عبد الرحيم مؤدن في أطروحته لنيل دكتوراه الدولة: "مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن 19". وفيها يحضر بجدية هاجس التجنيس من خلال استيفاء أهم المكوِّنات الأدبية لخطاب الرحلة.

[9] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس... آليات الكتابة... خطاب المتخيل، رؤية للنشر، القاهرة، 2006.

[10] عبد النبي ذاكر، مرجع مذكور، ص14.

[11] عبد الرحيم مؤدن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ط.1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الامارات الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص23.

[12] ينظر: شعيب حليفي، مرجع مذكور، ص.81.

[13] ينظر: عبد الرحيم مؤدن، أدبية الرحلة، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1996، ص.96.

[14] ينظر: المرجع نفسه، ص.25

[15] المرجع نفسه، ص.20

[16] المرجع نفسه، ص17 و18.

[17] ينظر: سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرّحلة، كليّة الآداب، الرّباط، (د.ط)، 1995، ص14.

[18] عبد النبي ذاكر، مرجع مذكور، ص35.

[19] حسن لشكر، المتكلم واستراتيجية الخطاب في الرحلة، مؤلف مشترك، المتكلم في السرد العربي القديم، تونس، دار محمد علي للنشر، ط1، 2011، ص 153.

[20] حسن لشكر، مرجع مذكور ص165.

[21] المرجع نفسه، ص160.

[22] محمد القاضي، أقنعة المتكلم في أدب الأخبار، ضمن مؤلف مشترك: المتكلم في السرد العربي القديم، أعمال ندوة إشراف: محمد الخبو، محمد نجيب العمامي، دار محمد علي للنشر: طفاقس تونس، (ط.1)، 2011، ص17.

[23] حسن لشكر، المتكلم واستراتيجية الخطاب في الرحلة، مؤلف مشترك، ص153.

[24] عبد الرحيم مؤدن، مرجع مذكور، ص14 و15.

[25] حسن لشكر، مرجع مذكور، ص158.

[26] المرجع نفسه، ص158.